حزم وتدبير

لابن العميد*

كتابي وأنا مترجِّحٌ بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنكَ تُدِلُّ «١» بسابق حُرْمة، وتَمُتُّ بسالف خِدْمة، أيْسرُهما يوجب رعاية، ويَقتضي مُحافظة وعنايَة، ثم تَشفعُهما بحادث غُلول «٢» وخيانة، وتُتبعهما بآنف «٣» خلاف ومعصية؛ وأدنى ذلك يُحبِط «٤» أعمالَكَ، ويَمحق كلَّ ما يُرعى لك.

لاجَرَم أني وقفتُ بين مَيْل إليك، ومَيْل عليك: أُقدِّم رِجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قَصْدك. وأبسُط يداً لاصطلامك «٥» واجتياحك، وأثني ثانيةً لا ستبقائك واستصلاحك. وأتوقف عن امتثال «٦» بعض المأمور فيك ضنًا بالنعمة عندك «٧»، ومنافسة في الصنيعة «٨» لديك، وتأميلاً لفَيْئَتك «٩» وانصرافك، ورجاءً لمراجعتك وانعطافك؛ فقد يغرُب العقل ثم يَؤوب، ويَعزُب اللُّب ثم يَثوب، ويذهب الحَزْم ثم يعود، ويَفسُد العَزْم ثم يَصلُح، ويُضاع الرأيُ ثم يُستدرَك، ويَسكر المرء ثم يَصحو، ويكدُر الماء ثمّ يصفو، وكلِ ضيقة فإلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء.

وكما أنك أتيتَ من إساءتك بما لم تحتسبْه «١٠» أولياؤك، فلا بِدْع أن تأتيَ من إحسانك بمالا ترتقُبه أعداؤك، وكما استمرتْ بك الغفلة حتى ركبتَ ماركبت، واختَرْتَ ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تُبصر فيها قُبْحَ ما صنعتَ، وسوءَ ما آثرتَ.

وسأقيم على رَسْمي «١١» في الإبقاء والمماطلة ما صلَح، وعلى الاستيناء «١٢» والمطاوَلة ما أمكَن، طمعاً في إنابتك «١٣» وتحكيماً لُحسن الظن بك، فلستُ أعدَم فيما أظاهره «١٤» من إعذار «١٥» وأرادفه من إنذار، احتجاجاً عليك واستدراجاً لك، فان يشأ اللهُ يُرشدْك، ويأخذْ بك إلى حظّك ويسدِّدْك، فإنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

■■ الهوامش:

* من رسالة له إلى أحد الخارجين على طاعة ركن الدولة البويهي «يتيمة الدهر للثعالبي ٣/١٦٣»

«١» أدلّ: اجترأ وانبسط وأدلّ عليه: أفرط، ثقةً بمحبته.

«٢» غَلّ ـ يغُلّ غُلولاً: خان.

«٣» الآنف من الزمن: أدنى الأوقات إلى الحديث الذي يتُحدّث به.

«٤» حبِط عمله يحبَط حبْطاً وحُبوطاً: فسد وذهب سدى.

«٥» اصطلم: استأصل «افتعل من صلم: قطع من الأصل».

«٦» امتثل الأمرَ: أطاعه «مثُل ـ يمثُل مثولاً: انتصب واقفاً».

«٧» يعني: إنه يريد أن ينعم عليه بالتوقف عن اصطلامه.

«٨» الصنيعة: الإحسان؛ والجمع: الصنائع.

«٩» فاء ـ يَفيء فيْئاً: رجع، والفيْئة: الرجوع.

«١٠» احتسب الأمرَ: ظنّه «افتعل من: حسِب».

«١١» الرسم: الخطّة والأمر.

«١٢» أنى ـ يأني، وأنيَ ـ يأني أنياً وإنىً: أبطأ؛ واستأنى استيناءً: تمهل وترفّق.

«١٣» ناب وأناب: رجع وتاب؛ والإنابة: الرجوع والتوبة.

«١٤» ظاهرة مظاهرة وظهاراً: شدّ على ظهره فقوّاه وأعانه. يريد هنا: أجعل العُذر يقوّي العُذر ويظاهره.

«١٥» أعذرَه: قبل عذره، ورفع عنه اللوم؛ وأعذر من نفسه: أتى بما يُعذَر عليه ويرفع عنه اللوم والتثريب.